

الحلقة (٢٠)

فقد تحدثنا في اللقاء السابق مع الآية المنسوخة وهي قوله الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠).

وفي هذا اللقاء تنمة أخيرة فيما يتعلق بهذه الآيات آيات النكاح والطلاق وما في أحكامهما فالآية التي معنا هي:

❖ قول الله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤٢).

إذاً انتهينا من مشهدٍ أسريٍّ خالصٍ تمثل في النكاح ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ واستمر بنا هذا التطواف على أكثر من تفرعةٍ داخل هذا المشهد الكبير ثم بعد ذلك ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ ثم ثم إلى أن انتهى بنا الحديث عند هذه الآية، ولعل بها نكمل هذا المشهد الجميل الذي فيه من الأحكام الخاصة (بالأسرة ومشاكلها وحركتها) وما إلى ذلك بهذه الآية. ومنتقل بعدئذٍ إلى أحكام جديدة تتعلق وتخرج من الأسرة الصغيرة إلى الحياة العامة بأفراحها وأتراحها، بل ما يأتي له علاقة بين الدول.

﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤٢) إذاً الآيتان ٢٤١-٢٤٢

❧ **اختلف العلماء في هذه الآية:** فقال أبو ثور هي محكمة، والمتعة لكل مطلقة، وكذلك قال الزهري حتى الأمة يطلقها زوجها، وكذلك قال سعيد بن جبير وهو أحد قولي الشافعي. ﴿وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي آيات هذه؟ هل هي خاصة أم عامة؟ الذي يظهر المعنى بها الآيات السوابق كلها.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعقلون ماذا؟؟ تعقلون هذه الأحكام وتتفكرون وتستدلون بها على الله عز وجل، تعقلون أموركم الخاصة، أموركم الأسرية، أموركم البيتية، أموركم الحياتية، كل ذلك لعلكم تعقلون.

ونحن نعلم كما يقول ابن عباس لعل من الناس (ترجّ) ولعل من الله عز وجل (على بابها) فـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كونوا عقلاء علماء فقهاء بهذه الآيات السوابق، فكل تشريع في ذلكم المشهد الأسري بحاجة إلى تعقل.

ونحن نعلم كما صنف وألف ابن تيمية رحمه الله تعالى كتابه درء تعارض العقل والنقل على كل فالعقل الذي اهتدى بالنقل، العقل الذي أعمل ذاته وأمره متوافقاً لا متنافراً مع النقل، فلا شك أنه

يكون أهدى من غيره، ولا شك أنه يكون أعقل من غيره، ولا شك أنه يكون أرضى لله عز وجل من غيره، ونحن نعلم أن القرآن الكريم في غير ما آية دعا إلى التفكير، دعا إلى التعقل، دعا إلى التبصر، دعا إلى التذكر، كل ذلك لأن القرآن لا يقف حائلاً بين الإبداع الذي هو مقيد ومنضبط بقيود وضوابط شرعية معتبرة، فلا إشكال، بل إن المسلمين ولا سيما الفلاسفة كالرازي والغزالي وغيرهما من العلماء، الذين وضعوا الدليل نصب أعينهم وساروا خلفه، فالدليل يضيئ لهم الطريق، فحصل هناك الإبداع، وحصل هناك التطور للبشرية جمعاء، فما كان المسلمون يوماً منغلقيين ولا متقوقعين في زاوية من زوايا الحياة، إنهم أمة قيادية، إنهم أمة ريادية، هم الذين يقودون لأن شريعتهم نسخت الشرائع السابقة كلها.

وهذا نجد دائماً عند ذكر بعض الآيات التي تحتاج إلى إعمال الفكر والعقل نجد أن تذييل هذه الآيات إما بالتعقل أو التفكير أو التذكر وما إلى ذلك، اقرؤوا معي قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لماذا يعقلون؟؟

● لأن هذه الآيات كل آية فيها ومنها بحاجة إلى تأمل، بحاجة إلى تدبر، فإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن ختم هذه الآيات التي سبقت ختمها وتذييلها بقول الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ له دلالة. نكون بهذا بفضل الله ورحمته قد انتهينا من الحديث أو التفسير عن آيات الأسرة تحديداً، وقبلها بعض الآيات القلائل التي هي آيات الجهاد والنفقة وما إلى ذلك، نكون بهذا قد انتهينا من القول في هذا كله، ونريد أن نذكر أن من أراد الاستزادة في هذا فعليه أن يعود إلى كتب الفقه، فهي تبسط المسألة من جوانبها كافة، أما نحن هنا نلقي عليها إطلالة وحسبنا ذلك.

◀ ننتقل بعدُ كما قلنا هذا سابقاً لنقف مع قضية جدُّ مهمة، قضية لها علاقة بالأفراد والمجتمعات والدول، وهي قضية هي أم القضايا، وأنا أعني هنا بتلك القضية قضية الاقتصاد، فالاقتصاد نأتي إليه الآن أو هو نستدعيه فيأتي إلينا ونعيش معه ونحن نعيش معه إذ كل إنسان يعيش معه، وهناك طرفة: أن أعرابياً كان يأكل مع أعرابي، فإذا بكسرة خبز فأخذها الأعرابي وعدا عليها يعني أخذها بقوة، فقال له صاحبه: يا هذا إنما هي كسرة خبز يعني حاجة يسيرة، فقال: والله من أجلها لتعدوا الدول على الدول.

❁ قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٢٧٥.

لعلنا نقف هنا وقفات يسيرة إن شاء الله تعالى، حقيقةً نحن نعلم بالضرورة أن الاقتصاد هو حجر الزاوية في استمرارية الحياة الإنسانية، لعل قول الله عز وجل: ﴿قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ وقت أهبط أبونا آدم عليه السلام من الجنة إلى هذه الأرض التي هي أُمنا التي نعيش عليها وندفن فيها على حد قول الله عز وجل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ فحين أهبط آدم عليه السلام كان بحاجة إلى أن يستمر في هذا الكون، فالكون عمارته بحاجة إلى أمور، من هذه الأمور وقد تكاثرت ذريته بحاجة إلى ما يُسمى بالمعاوضة، أنا أملك شيئاً والآخر يملك شيئاً مغايراً لما عندي، نتعاون ثم يكون هناك العوض، فأعطيه ما لا يوجد لديه، وأخذ ما يوجد لدى أخي، واستمرت الحياة هكذا وإلى ساعة الناس هذه.

«المهم أن الاقتصاد هو حجر الزاوية في استمرار الحياة» ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ فاستمرارية الكون، ونحن مأمورون بعمارته حتى يستمر الإنسان مع أخيه الإنسان يبني هذا الكون، فإذاً الاقتصاد من الأهمية بمكان، وهذا معلوم بالضرورة. ولعل أول من استطاع أن ينظم ويُطوِّر الاقتصاد هو سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

«فبعض المحققين يذهب إلى أن يوسف عليه السلام هو واضع الاقتصاد، طبعاً ليس وظيفته عليه السلام وظيفه اقتصادية صرفة، ولكن نحن نعلم والحديث موجود أن بني إسرائيل كانت أنبياءهم تسوسهم -والحديث بمعناه- تسوسهم أنبياءهم يعني أنبياء و"ساسة"، فإذاً يوسف عليه السلام كان واضعاً لعلم الاقتصاد بلا منازعة ولا مدافعة، نجد ذلك في قصته مع رؤيا الملك، عندما رأى تلك الرؤيا وأراد من الحضور ومن حاشيته أن يعرف حقيقتها فلم يستطيعوا معرفة حقيقتها، فلجؤوا إلى يوسف عليه السلام، وبعد أن استطاع عليه السلام بذلك، نعم أن الرسول ﷺ قال: **(ولو كنت مكان يوسف عليه السلام ودعاني الداعي لأجبت)**، لكنه عليه السلام أبى إلا أن تظهر براءته، فبعد أن جاءه صديقه في السجن وعبر له الرؤيا، فانطلق هذا فرحاً، وبعد أن علم الملك بقصته، المهم: استطاع يوسف عليه السلام أن يضع خطة للطوارئ، فسبع سنوات عليهم أن يعملوا ويجدوا في العمل، ولا يؤخذ من الإنتاج إلا الشيء اليسير، وسبع سنوات أيضاً يترك، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴿الخطة الطارئة أو خطة الطوارئ﴾ **﴿آتَتْ أَكْثَهَا﴾**، ثم بعد ذلك سنة وبعد ذلك الأمور تنجلي وقد كان، غمراتٌ ثم تنجلي.

فإذاً الاقتصاد هو حجر الزاوية في استمرارية الإنسان، فإذا كان الأمر كذلك فإذاً الأصل في هذا الاقتصاد الذي توافق عليه البشر كلهم يجب أن لا يكون فيه غبنٌ ولا ظلمٌ ولا مخادعة ولا غشٌّ، إن هذا هو أمر الله عز وجل: **﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾**.

فإذاً إذا كان الاقتصاد بما ذكرناه وهو اقتصاد أن تعطيني وأعطيك، بيد أنه لا تظلمني ولا أظلمك،
أخذ ما عندك تأخذ ما عندي بالمعاوضة.

❶ أما إذا حصل خلل وهذا الخلل هو الذي يحق هذا الاقتصاد، ويمحق هذا الرزق، ويجعل الأفراد
والمجتمعات والدول في أسفل سافلين ذلكم هو الجريمة الأولى التي حاربها الإسلام ولا زال يحاربها
ولسوف يزال يحاربها إلى أبد الآبدين ألا وهو جريمة الربا.

تلك هي أهمية الاقتصاد، وإن كنا لم نستطع أن نلم بالأهمية كلها، لكن حسبنا كما قلنا إشارات
هنا وهناك، وذكرنا لكم كيف أن يوسف عليه السلام لم يجد عن الطريق، فهو واضع ومؤسس
ومنظر علم الاقتصاد.

نأتي الآن لهذا الحارم الكريه البغيض الذي يعطيك صورة حسنة، ولكن إذا دلفت إلى داخل هذه
الصورة، أو ما خلف هذه الصورة لوجدت أن هناك مصيبة سوداء مقبلة على الفرد وعلى المجتمع وعلى
الدول، تلکم المصيبة أجاز الله منها المسلمين وبلادهم هي مصيبة الربا.

إذاً هذه الآية تضمنت أحكام الربا وجواز عقود المبيعات، والوعيد لمن استحل الربا وأصر على فعله.

❧ مفردات الآية:

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾: الربا في اللغة: الزيادة المطلقة، يقال ربا الشيء يربوا: إذا زاد ونما، وكتبت
بالواو على لغة من يُفخم، وقال البصريون أو البصريون -جائز- هو من ذوات الواو لأنك تقول في
تثنيته رباوان، قال سيبويه -وهو بصري أيضاً- هذا ما قاله سيبويه (رباوان) سيبويه هو الذي قال
هذا، وقال الكوفيون يكتب بالياء وتثنيته بالياء (رَبَيَّان) لأجل الكسرة التي في أوله، قال الزجاج ما
رأيت خطأً أقبح من هذا ولا أشنع لا يكفيهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في التثنية، إذاً البصريون
وهم يتشددون في اللغة، أما الكوفيون فمساحتهم أوسع.

وهناك معارك -غير مسلحة- قامت بين الكوفيين والبصريين، ولعل سيبويه أحد ضحايا تلك
المعارك، فقصته في أنه في مسألة ذكرها أبو حازم الغرطاجني وغيره حتى ابن هشام في مغني اللبيب
ذكر على أن في مسألة معروفة بالمسألة الزنبورية أو الزنبورية، وحصل خلاف وبعدها سيبويه غم و-
طب ساكت- وكما قلنا -تذكرون- أن الخوارزمي وشيخه بديع الزمان الهمداني، فإذا البصريون
يتشددون في اللغة في القياس والمسموع، وأما الكوفيون فالأمر عندهم أهون ومجالهم أرحم، ولعل
أمر الكوفيين هو الذي يتمشى مع الناس.